

## الحرية الدينية ودورها في ترقية الإنسان.

عند محمد أبي القاسم حاج حمد\*

أ. بابيز محمد الأمين/ قسم العقيدة/ جامعة الأمير عبد القادر/ قسنطينة

## الملخص:

يعلل أبو القاسم حاج حمد حاجة الإنسان إلى الحرية الدينية بتفوق الحرية الروحية على الحرية المادية؛ ورغم أن الحضارة الغربية قد أسهمت في تحرير الإنسان عبر بناء مؤسسات كفلت بعض الحريات الليبرالية والاشتراكية، إلا أن المبدأ الذي ظل يتحكم في الحضارة الغربية هو (الصراع) في غياب المصلحة المشتركة.

والقاعدة الدستورية التي راهن حاج حمد على صلاحيتها في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هي قاعدة الدخول في " السلم" كافة، وأثبت هذا المبدأ القرآني بأدوات معرفية منهجية، منطلقاً من واقع معاناة الإنسان المتزايدة في ظل الأنظمة التي أنتجت منظومة شرائع قاصرة عن تلبية نداء الروح الذي يجمع الإنسانية تحت مظلة (السلم).

**ABSTRACT:**

This study aimed to explore the religious freedom in Aboul'kacem Hadj Hamed study, which named " The Human Freedom in Islam" compared to the Materialistic Freedom.

HADJ HAMED distinguished between two levels of freedom: spiritual and materialistic, The peace principle is the link between the people and societies, in the spiritual level, while, the materialistic societies are built in conflict principle.

### تمهيد:

يعرب راهن العالم عن مدى افتقاره إلى الحرية، رغم الادعاء العريض بحفظ الحريات، بل وزيادة معاناة الإنسان - المتقدم تكنولوجيا- من أنماط العبودية الحديثة والأكثر شراسة في مسار تاريخ الإنسان، ويصوّر رئيس جنوب إفريقيا عالم اليوم كجزيرة أغنياء تحوطها بحار واسعة من الفقراء يتحكمون في مصائرهم وأنفاسهم، وتبقى أصوات الأغلبية الساحقة من سكان الكرة الأرضية تتوسّل أبسط حقوقها كالمساواة والعدل، من نظام عالمي أغلق كلّ منافذ الخصوصية والتحرر.

ويبدو أن الإنسان يتملّكه نزوع نحو التسلط والاستعباد، لا يصدر في ذلك عن طبيعته، تبعاً لما تذهب إليه فلسفات الاستعلاء والصراع، وإنما نتيجة تخليه عن مبادئه العليا، وسعيها إلى امتلاك الأداة التي يسوغ بها لنفسه أن يفتس حقوق الضعفاء من بني جنسه ويهضم حقوقهم، بل ويستعلي على العوالم التي تفوق عالمه، متستراً في ذلك بشعارات الإنسانية عبر هياكل المنظمات الحقوقية العالمية.

وحتى حرية التعبير والاعتقاد أصبحت مراقبة في ظل هذه البيئة المتسلّطة، مما يهدد وجود الإنسان في معناه الديني والثقافي<sup>1</sup>، هذا المستوى الذي يستعصي على التنميط؛ ذلك لأن الإنسان يتميّز عن العوالم الأخرى، الحيوان والنبات والجماد، بأنه كائن راشد

ومكلف، ولا يتأتى له ذلك إلا بكمال الحرية على جميع مستوياتها الكونية، ووفق ذلك يتحمل جميع تبعاته ومسؤولياته.

وفي ظل هذا النظام العالمي الذي يتهدد الحريات هل بوسع الدين الإسلامي أن يسهم في رفع مستوى الحريات في العالم؟ أم لا مجال لأن يفسح فيها بل ولن يزيدها إلا تقزيمًا وإلغاءً؟ وإن أمكنه ذلك فما هو نوع الحرية التي يمنحها الدين للإنسان في ظل مفهوم العبودية الذي يقتضي الانقياد والخضوع لأوامر الدين؟

وفي هذه الورقة يزعم محمد أبو القاسم حاج حمد أن المستوى الذي يقدمه الدين من الحرية يتفوق على المستوى الذي يقدمه الإنسان لنفسه أو لأخيه الإنسان من الحرية. وفي سبيل عرض ذلك سأشير إلى واقع الحريات الإنسانية اليوم، وإلى دور الدين في تحرير الإنسانية، ثم أخلص إلى مقارنة حاج حمد بعد ذكر أسسها ومستنداتها المنهجية في مؤلفه (حرية الإنسان في الإسلام)، من حيث هي أطروحة مؤسسة على أسس معرفية ومنهجية<sup>2</sup> ضمن مشروع الفكر، الذي يستند على الجمع بين القراءتين أي قراءة الواقع إلى جانب القراءة الغيبية<sup>3</sup>.

### - مفهوم الحرية:

الحُرُّ بالضم نقيض العبد والجمع أَحْرَارٌ وحرارٌ، والحُرُّ من الناس أختيارهم، وأفاضلهم وحرِّيَّةُ العرب أشرفهم، يقال هو من حرِّيَّةِ قومه أي من خالصهم والحُرُّ من كل شيء أعْتَقَهُ<sup>4</sup>.

وفي اللغة الإنجليزية تأتي الحرية بلفظتين Liberty و Freedom، وتردان بمعنى ترادفي في القواميس. إلا أن التدقيق يفصل بينهما؛ فلفظة Liberty تكتسب حمولة حسية كالحريات العينية (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) ، في حين أن Freedom أكثر دلالة على المعنى الوجودي الميتافيزيقي المطلق، وعلى ذلك فإن Freedom أقرب إلى حرية، وأما Liberty فأقرب إلى تحرر.

وتشيران في معناهما إلى: "وضع اجتماعي يفيد منزلة رفيعة وسجايا كريمة"، وأساسه الانعتاق من العبودية والأسر والسجن والجزية، كما تشير أيضا إلى غياب القهر والقسر والإجبار والإرغام على الفعل أو الاختيار أو القرار.<sup>5</sup>

الانعتاق من العبودية والمنزلة الرفيعة واختيار الفعل والقرار.. وغيرها، محدّدات لمفهومي الحرية والتحرر كما تثبت القواميس، وقد تلتقي هذه المحدّدات مع مقاصد الدين، في تحرير الإنسان من كل ما سوى الخالق<sup>6</sup>، كما تتضمن منظومة الدين ما يعاكس هذا التحرير، كمفاهيم العبودية مثلا<sup>7</sup>. فكيف تعلّل الحرية الدينية في ظل الحريات الإنسانية التي تخضع لواقع الإنسان في العالم المتقدّم؟

وهنا تجدر الإشارة إلى مفهوم العلاقة بين العبد وربّه هل هي علاقة استلاب وتقيّد تام بالنصوص التي تصادر فهم المتدين وتفاعله مع واقعه الذي يعيشه؟ أم هي علاقة تحريرية للعبد مما سوى الخالق؟

### تعليل الحرية الدينية:

سعى الأمريكيون-على خلاف الأوروبيين- في تعليل الحرية وفق رؤيتين؛ الأولى تتأسس على محددات مشتركة بين المنطلقات الدينية وغير الدينية على السواء، والثانية تتأسس على المنظور الديني، والإبراهيمي منه بالخصوص.

وبصدد تعليل الحريات الدينية في المستوى المعرفي، نستلهم المنظور الأول من خلال إعلان فرجينيا للحريات الدينية<sup>8</sup>، حيث صاغوا الحريات الدينية على أسس مشتركة في الحس الإنساني، ومعلقة في المنطق المعرفي، فقالوا: " إن لهذا العالم خالقا رحيمًا، قادرا على كل شيء، وقد أراد سبحانه أن يلفظ بعباده الذين هم أحرار، وليسوا عبيدا، وأن يؤدّي له الشكر من طريق عبادته بالروح والحقيقة وبطهارة الضمير"<sup>9</sup>.

تعليل الحرية الدينية يكون - وفق ميثاق الفرجينيين - على أسس محددة وهي:

- إثبات وجود خالق الكون، وإثبات رحمته وقدرته المطلقة.
- العباد هم أحرار، وليسوا عبيدا.
- إرادة الله تعالى من عباده هو تأكيد الشكر له بالروح والحقيقة وبطهارة الضمير.

تعتبر هذه الأسس مسوّغاتٍ لضبط معنى الدين، وتأكيدٍ تحريره للإنسان في منظور نخبةٍ داخل المجتمع الأمريكي الحديث، في حين تجاوزَ المجتمع الأوروبي الحديثَ الدينَ السماويَّ تدريجياً نحو الدين الطبيعي. فما هو الموقف الأسلم للمجتمعات المعرفية الحديثة؟ هل هو ضبط الحريات الدينية وفق مقاصد الدين وغاياته الكبرى كما هو موقف

إنجيلي أمريكا؟ أم أنّ تجاوز الرؤية الدينية أسلم حتى لا يقع في جبرية مفرطة، كما هو الأمر مع المجتمع الأوروبي الحديث الذي تجاوز الكنيسة نحو الدين الطبيعي.

هذا التحدي الذي يواجه المتدينين اليوم في ظل الموجات التحررية الواسعة التي تستقطب أتباع الأديان، وتضعهم في مواجهة ما يسميه حاج حمد بمشكلة ابتعاث النفس المؤوودة (المخنوقة). وهذا ما أقصد بتعليل الحرية الدينية في ظل الحريات الكونية المختلفة. فما هي صيغة تحرير الإنسان في إطار الدين الإسلامي؟

### التحرر في سياق الخطاب الإسلامي.

إن المعنى العميق الذي يملكه الدين لإنقاذ الإنسانية من عالم اللامعنى الذي آلت إليه فلسفات العدمية، إنما هو معنى الحرية والتحرر. ذلك لأن الخطاب الإلهي خطاب مفارق، وبالتالي فهو منزّه عن النقص والالتزام، وهو بذلك محايد غير منحاز، واسع غير محدود، ثر لا ينضب ولا ينتهي، ولذلك تُلفي عموم من يحده من المعدمين والمعوزين والواقعين تحت نير العبودية والفقر، وفي مقابل هؤلاء فإن الطبقة التي تقف ضد الأنبياء والفلاسفة الإنسانيين - غالباً - هم المترفون وذوو المصالح والنفوذ. وفي الحقيقة لم يكن يضير فرعونَ وأبا لهب أن يعبد الناسُ ربًّا غير الذي كان يعبده هو، إنما الخطر في أن يذوب نفوذه ويفقد مكانته ومصالحه!

ونجد أن التراث الإسلامي مليء بما يؤكد مقصد التحرر على سبيل التمثيل الخطبة التي ألقاها ربيعي بن عامر أثناء الفتح الإسلامي لبلاد فارس، والتي تظهر لنا جلياً أن الأوصاف التي ميّزت الإسلام عن الجاهلية لم تكن غير المعاني الإنسانية والأخلاقية، وفي

مقدمتها الحرية. يقول " ابتعثنا الله تعالى لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"، وفي مقولة عمر بن الخطاب " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، ولم يبق ذلك حبيس المقولات ورهين الشعارات وإنما انعكس على منظومة من الأحكام التي تتغيًا تخلص المجتمع من نظام الاسترقاق ليضطلع كل أفراده بمسؤوليات اجتماعية ومعرفية، على سبيل التمثيل، شهادة عمر بن الخطاب في بلال بن رباح حين قال فيه: " أعتق سيدنا -أي أبو بكر الصديق- سيدنا -أي بلال بن رباح" وهذا معنى أساس أرسته الديانات السماوية في سبيل تحرير الإنسان. ولكن هل حافظت الأجيال اللاحقة على هذا المكسب في واقعها واستثمرته أم ظل تاريخنا تتغنى به وتعجز أن توجد له آليات عملية تحوله إلى واقع ثر ومتجدد؟

تعرض هذا المسار تدريجيا عبر التاريخ إلى الانحراف، ووقف بعض ممثلي الدين إلى صف الطغاة وسوّغوا لهم أفاعيلهم ، والسبب في ذلك يعود إلى:

- استبداد الحكام ضد المتدينين وغير المتدينين باسم الدين: وأدى ذلك إلى تشويه التاريخ الديني، بواسطة استعمال اسم الله والدين والمذهب والطائفة لأغراض قبلية أو حتى شخصية.
- بناء منظومة استبدادية متكاملة، لمجاهة كل أبواب الحرية والتحرر، وتصنيف ذلك في خانة التفلت والخروج عن القائد والمجتمع أي بالمصطلح الديني (الخروج عن الإمام والأمة)، والتوسل في ذلك بالتنصيص الروائي والتأويل القرآني

في سبيل خدمة أغراض المستبد، لذا يرى صاحب كتاب "السلطة في الإسلام" أن " ينابيع النصر الأولى قد تم سحقها إلى حد بعيد تحت مطارق الاستبداد والقهر، وكانت شريعة التوحيد الصافية والبسيطة المستمدة أساسا من النص الخالص، قد شأها كدر كثيف من أوشاب الوضعية البشرية، فتضاءلت منها مساحة الحق خلف ركाम من الروايات والخزعبلات الصوفية وأقوال الرجال . وكانت مفردات كثيرة من مباحج القيم العليا كالحرية والعدالة والعلم والحضارة وحمل أمانة الخير إلى هذه البشرية، قد خفت وهجها في ذاكرة الوعي العام"<sup>10</sup> .

- استمرار الاستبداد بأشكال حديثة ما بعد الكولونيالية فيما يسمى الديمقراطية<sup>11</sup>، أو عصر الميغا إمبريالية<sup>12</sup>، وبحسب المهدي المنجرة فإن الانهيار هو المستديم وليس التنمية التي يرفع شعارها الغرب، وتاريخ الاستعمار ينبئ عن تدمير للبنية الفوقية للشعوب المستعمرة وإن كان قد صاحبه بناء تحتي، وقد عم ذلك جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. "ونحن نقرأ في آخر تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية المتعلق بالتنمية البشرية أن خمسة وأربعين بلدا أصبحت أفقر اليوم من سنة 1991، وأن معدل العمر قد تراجع في أربعة وثلاثين بلدا في الوقت الذي تزايدت فيه المجاعة في اثني عشرة بلدا .. ويأتي بعد ذلك الاستلاب الثقافي الذي يمكن اعتباره الذل الأكثر خطرا على المستوى البعيد، لأن الأمر يتعلق بعدوان على أنظمة القيم"<sup>13</sup> .

وقد أفاض محمد أبو القاسم حاج حمد في بيان حقيقة الحرية، في مؤلفه "حرية

الإنسان في الإسلام"، وأهم ما يميّز رؤيته ما يلي<sup>14</sup> :

- تجاوز حاج حمد الحدود التي رسمتها المنظومات المذهبية تجاه حرية الإنسان، من خلال رؤيته المطلقة لإمكانات الإنسان. فبرى في الإنسان ذلك الكائن كامل الحرية والإرادة، الذي يعيش في كون لامتناهي في الصغر (تحت مستوى المرئيات)، ولا متناهي في الكبر (فوق مستوى المرئيات)، ويحيط بكل هذا إلهٌ أزلٌّ فوق الزمان والمكان<sup>15</sup>.

- حرر مفهوم "الغيب" ومحتواه من المعرفة إنسانية الخاضعة للأيديولوجيات والمذاهب المتعلقة بانتماءات الأئمة واتجاهات المتكلمين، وقراءة التراث الإسلامي في إطاره التاريخي النسبي؛ الذي تنتمي أغلب إشكالاته إلى ملابسات مغايرة لإشكالات الحاضر الإنساني؛ من مثل إشكالات جبرية الإنسان واختياره لمصيره، أو خلق العبد لأفعاله ومدى مسؤوليته في ذلك تجاه ربه.

واستعان حاج حمد في ذلك بآليات الحفر المعرفي، لأجل الغوص في دلالات المفاهيم المؤسسة للمنظومة التراثية، والتي أسهمت في توجيه مسار الواقع وصياغة الرؤية الكونية للإنسان المتدين.

- تجاوز الإطار الطبيعي المادي الذي حصر الإنسان في إطار قوانين العالم التجريبي المحسوس، القوانين التي اختزلت إطلاقية الكون وتعدد أبعاده ولا محدوديته في المادية ذات البعد الأحادي، والمقصود أن المستوى التجريبي الذي يتعامل معه العلم يتجاوز ويهمل قوانين أخرى تفوقها في الأهمية، مثل حركة النفس التي هي خلاصة جدلية كونية وتفاعل بين حركات الليل والنهار

والشمس والقمر والسماء والأرض، مستتبطا هذا من سورة الشمس. واستعان في ذلك بنتائج حلقة فيينا من خلال تفكيكها للمسلمات الدوغمائية لفلسفة العلوم الطبيعية.

هذا الاستيعاب والتجاوز ينضبط وفق مفهوم الأسلمة، التي يميزها عن ادعاءات التأصيل الإسلامي وجهود الإعجاز العلمي التي تخالف منهجه، فيقول هي " فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف هذه العلوم ضمن نظام منهجي ومعرفي ديني-غير وضعي"<sup>16</sup>.

### المحددات التي يعلل محمد أبو القاسم حاج حمد وفقها الحرية الدينية<sup>17</sup>:

يعتمد حاج حمد على مجموعة من المحددات التي يستوعب فيها المقاربات السابقة لمفهوم الحرية ثم يتجاوزها نحو المفهوم القرآني وتمثل في:  
أولاً: نفي (دستورية) القرآن؛ أي حصره في التشريعات والأحكام، وإنما يذهب إلى إثبات شموليته وهيمنته على غيره.

ثانياً: من لوازم هيمنة القرآن على الكتب السابقة، نسخه لشرعة الآصار والأغلال نحو شرعة التخفيف.

ثالثاً: دستور الأحكام الإسلامية ليس هو القرآن الكريم، وإنما في وصايا جبل عرفات، فالقرآن أشمل من ذلك.

رابعاً: للعقوبات في الشريعة الإسلامية حدان؛ الأول (أدنى) تعتمد على العفو والاستتابة والاعضال، والثاني(أعلى) يأتي بصورته المخففة.

خامساً: يؤدي عدم القول بشرعة التخفيف إلى إبطال (هيمنة) القرآن ودور النبي في رسالته الخاتمة.

سادساً: إثبات الآيات الخوارق (المعجزات) يناهز رسالة القرآن في إطلاق الوعي الإنساني.

سابعاً: وصايا جبل عرفات تصلح تشريعات تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، ويبقى باب الاجتهاد مفتوحاً في مواضع الخلاف.

### مقومات الحرية في الإسلام<sup>18</sup>:

يحدد حاج حمد شروط الحرية أولاً في إدراك مقومات الوعي(السمع البصر والفؤاد)، وهذا يتكرر في النص القرآني من خلال الكثير من الآيات التي تحض على استعمال أدوات المعرفة، بل وتربط سلامة مسار الإنسان في الدنيا والآخرة بمدى تفعيله لمقومات وعيه<sup>19</sup>.

ويسند الحرية في الإسلام إلى وعي الإنسان وإطلاق عقله كونياً، بدل حصرها في الهيئات العرفية والاجتهادات السابقة المرتحنة لنصوص بشرية؛ وهذا لأن الإنسان بفطرته كائن حر، واستعداداته تؤهله لذلك استدلالاً بقوله تعالى: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل: 78)، وقد ضرب الله تعالى في هذا السياق مثلاً واضحاً لإطلاقية حرية الإنسان

وهو (الطير في جو السماء) " ألم يرو إلى الطير في جو السماء ما يمكنه إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" (النحل: 79)، هنا يتحمل الإنسان كامل مسؤوليته.

### الحرية بين المستوى المادي والمستوى الروحي:

وفي المستوى الروحي يتميز المنظر القرآني عن التصور الغربي ببعده الإنساني التحرري مقابل النزعة الحيوانية المادية، لذا يعقد المؤلف مقارنة بين الحرية الإسلامية ومقابلها في الفكر الغربي، ويقرر أن الحرية في الفلسفة الليبرالية تتم عبر إشباع حاجات الفرد على حساب الجماعة، فيستحوذ الإنسان الليبرالي من خلال شعارات التحرر على حقّ اللباس وحق الإنتاج وحق التدخين، ويغرق في المطالبة بحقوقه ولكن ليس لأجل استكمال إنسانيته، وإنما استحابة لحاجاته ونوازه الغريزية الفردية.

وأما الحرية في المنظر الاشتراكي السوفييتي فمناطها الطبقة أو الحزب على حساب المجتمع والأمة. إذ تغلب مصلحة الطبقة على مصلحة الفرد ومصلحة الأمة، وتتكاثر الطبقات المتصارعة، وعض أن تؤول الأجيال إلى وفاق وتعاون فإنها تصير إلى صراع وتنازع، وتلتقي الحرية في الإطار الطبقي مع الحرية في الإطار الليبرالي على عدم استحابتها للبعد الروحي في الإنسان، وهو ما يغيب في الحريات الإنسانية على الرغم من استهلاكها لشعارات الإنسان والحرية.

الناتج من حصر الحرية في إطار الفرد أو الطبقة أن تخضع الإرادة الإنسانية إلى المشيئة الكونية، أي أن يظل الإنسان عبدا حتى لحاجاته الحيوانية الدنيئة، ليبقى الصراع هو المبدأ الحاكم بين الأفراد والمؤسسات " هنا تختزل علاقات الإنسان بنفسه ومحيطه العائلي والاجتماعي وبيئته الكونية. ليصبح كل منا هدفا بسبب الخبز والملح عوضا عن أن يكون هذا الخبز والملح سببا لتأخينا بما يؤكد القيمة الروحية والإرادية المتعالية للإنسان"<sup>20</sup>.

وهذا ما يؤدي إلى نسبية الحرية الدينية -أي إلى تضييقها- أو إلى إبطائها حتى، وهو مما صارت إليه الحريات الغربية رغم الجهود الإنسانية لتحرير الإنسان. ويتوافق مع ذلك ما يصدر من كتابات كثيرة حول موضوع الحرية، والكثير منها يدّعي التحديد ويحاول تحديث الفكر الإسلامي لمقارنته بالديمقراطية الغربية المعاصرة، ردًا على التيار التقليدي الذي رفع شعارات "الحاكمية" و"دستورية القرآن"، دونما تفعيل حقيقي لمثل هذه الشعارات، ومجاورة الإطار القديم الذي صاغ أحكامه في إطار مفهوم (دار الحرب ودار الإسلام) من ناحية التوزيع الجغرافي السياسي للعالم، وعلى مفهوم (المسلم والذمي) من ناحية توزيع مستوى الأهلية في المواطنة.

### نسبية الحرية الدينية في إطار الفكر الإسلامي:

وفي هذا الصدد يدعو حاج حمد إلى قطيعة معرفية مع التصورات الأيديولوجية المرتبطة بمعطيات الواقع (الزمكاني)، والمتخلف عن العصر والمخالف لمعطيات الواقع؛ ومعضلة هذا الاتجاه أنه أسقط فهمه البشري القاصر على كليات الدين وأصوله، ثم قفز بهذا الفهم خارج إطاره الزماني والمكاني بعدما اعتمده مرجعا أوحدًا لكل الاجتهادات والمقاربات اللاحقة، فسحب علاقة (الملك - العبد) على علاقة (الله - العبد)، وطبقه في قراءته لنصوص القرآن وفق منظور تراثي تاريخي. لذا يؤكد حاج حمد دائما " أن المعرفة الدينية قد أحيطت في مراحل التنزل المختلفة ببيئة المفاهيم الأيديولوجية التاريخية السابقة لمرحلة الانعتاق البرجوازي الفردي الليبرالي، فقيم الحرية لم تكن مرتبطة بالإنسان لذاته فردا إلا ضمن المشروع البرجوازي، ففي السابق، كان ينظر إلى هذه الحرية من زاوية ارتباطها

بالوضع الاجتماعي للسيد في مقابل العبد"<sup>21</sup>. من خلال هذا النص يمكن تحديد أسباب تنسب الحرية في الفكر الإسلامي من منظور حاج حمد في:

- قوة تأثير المفاهيم الأيديولوجية التاريخية على موضوع الحرية.
- ارتباط قيمة الحرية بالمشروع البرجوازي الفردي الليبرالي.
- قياس علاقة الإله-العبد على علاقة السيد-المملوك.

لذلك يُصعّد حاج حمد الخطاب تجاه الحركات الدينية الفاعلة في العالم الإسلامي، الحركات التي تتجاهل سؤال الحرية في أدبياتها أو تكتفي بالشعارات دون أن تأبه بجوهرها، ويقول عنهم "هؤلاء هتوا الناس في دينهم وحكم الله واضح فيهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ (206) ﴾<sup>22</sup>. وأما حاج حمد فيرى أن هؤلاء يحاولون سرقة رصيد إنساني كونه الله عبر أربعة عشر قرناً.. تريد السلطة لتنفيذ تشريعاتها بفقها الخاص بها فهم ينشطون ضمن نموذج صراعي خارج القاعدة الإلهية الدستورية التي يدعون احتكارها وهي قاعدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (208) ﴾<sup>23</sup>، والهدف منها " هو اتخاذ القرار الدستوري بإجماع قوى المواطنين بحيث لا يكون ثمة صراع"<sup>24</sup>.

### مبطلات الحرية الإنسانية:

قد تتعرض قيمة الحرية إلى الانتهاك بالاستعباد المطلق للإنسان، وكذلك من خلال مظاهر الاستعباد الحديثة التي تتدخل في شؤون وقرارات الدول والأفراد من غير مسوغ إنساني مقبول، وهذا ما يسميه حاج حمد بالإبطال الموضوعي للحرية الذي يتم عبر انتقاص الواقع الموضوعي لحرية الفرد أو الجماعة، في مقابل الإبطال الذاتي الذي هو تعطيل لمقومات الوعي الإنساني بعدم تفعيل السمع والبصر والفهم، وكما أن تكريم الإنسان بالحرية الذاتية كان من خلال نفخ الروح فيه كما يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء:70)، فإن السبيل إلى تحقيق درجة التكريم الفعلي والوصول إلى درجة الرشد الإنساني لا يتم إلا عبر تفعيل هذه المقومات لأداء الشكر للخالق، يقول تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل:78).

يخلص حاج حمد إلى أن البعد الرابع (الروحي) هو مناط تكريم الإنسان. فحرية الإنسان لديه مقيدة إلى أخلاق الروح لا إلى امتدادات الجسد الحسي بالمنفعة الليبرالية، وأن الإسلام يلغي كل سلطة معرفية سوى الكتاب اعتمادا على مقومات وعيه وهي السمع والبصر والفؤاد، ومؤدى ذلك هو تحمل المسؤولية الفردية ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (95) <sup>25</sup>، لكن على المستوى التطبيقي يشير حاج حمد إلى تعرض الحرية الدينية إلى التحجيم أو حتى إلى الإلغاء وذلك لأسباب ثلاثة وهي: الأدلجة التاريخية

لموضوعة الحرية، وفهم علاقة الإنسان فهما متأثراً ببيئة العبودية، وكذلك ربط معنى الحرية بالسقف الفردي الليبرالي.

وفي الأخير يؤكد محمد أبو القاسم حاج حمد أن المستوى الذي يقدمه الدين من الحرية يتفوق على المستوى الذي يقدمه الإنسان لنفسه أو لأخيه الإنسان من الحرية، لذلك لا بد من استمداد الحرية رأساً من الدين تجاوزاً للوصايات السياسية والأيدولوجية.

\* محمد أبو القاسم حاج حمد: كاتب سوداني. عمل مستشاراً علمياً لـ"المعهد العالمي للفكر الإسلامي" في واشنطن. أسس عام 1982 "مركز الإنماء الثقافي" في أبو ظبي وأقام أول معارض الكتاب العربي المعاصر بالتعاون مع العديد من دور النشر اللبنانية. أسس في قبرص "دار الديونة" لإعداد موسوعة القرآن المنهجية والمعرفية، ومجلة "الاتجاه" التي تعنى بشؤون الفكر والاستراتيجية في نطاق الوسط العربي والجزوار الجغرافي. مصدر الترجمة هو غلاف مؤلفات حاج حمد عن دار الساقى بيروت.

<sup>1</sup> برغم وجود المادة 18 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة التي تحفظ حقوق التدين والتفكير ونصها: "لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة." إلا أن الدراسات تشير أن أكثر من اثنتين من كل خمس حكومات تتدخل في حق الفرد في العبادة وأن ثمانين عشرة بالمائة منها تدخلت بشدة. عند تجميع فهرس موجزة عن الحريات الدينية في العام 2009 قدم منتدى الدين والحياة العامة التابع لمركز بيو للأبحاث Pew Research Center أن لدى حوالي ثلث جميع البلدان "قيوداً شديدة أو شديدة جداً على أساس الدين". وعلى ذلك يمضي التقرير بالشرح أنه بسبب أن لدى العديد من الدول الأكثر سكاناً قيوداً شديدة فإن "ما يقرب من سبعين بالمائة من سكان العالم الـ 6800000000 يعيشون في بلدان تفرض قيوداً شديدة على الدين" (The Pew Forum, Public Life 2009 & on Religion).

- <sup>2</sup> مفهومها (المعرفية والمنهجية) يضبطان مفهوم أسلمة المعرفة في فلسفة حاج حمد وهي:
- المنهجية: الناظم الشمولي للكون في وحدة مظاهره المتكاثرة التي لا تقبل أشكالاً جزئية من المعرفة المادية أو الوضعية أو اللاهوتية، ولا تجزئ بين نظرات القوانين بتقييد استخدامها في مجالات دون أخرى.
  - المعرفية: إرجاع المفردات اللغوية والأفكار والاتجاهات ومحتوى الثقافات إلى أصولها البنائية التي تحدد دلالاتها.
- انظر : مدخل توضيح دلالات المصطلحات، ملحق كتاب : منهجية القرآن المعرفية، محمد أبو القاسم حاج حمد، مراجعة وتحقيق: محمد العاني.
- <sup>3</sup> الجمع بين القراءتين: الربط بين القرآن بوصفه معادلاً موضوعياً للوجود الكوني وحركته. انظر: المصدر السابق، ص 145.
- <sup>4</sup> ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت، 4/177، باب: حرر.
- <sup>5</sup> حنفي: حسن، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، تنظيم الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة، فلسفة الحرية (دراسة)، ص 429.
- <sup>6</sup> تَرَدُّ فِي ذَلِكَ الْعَدِيدِ مِنَ النُّصُوصِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة: 256).
- <sup>7</sup> في ذلك شواهد كثيرة، لكن الملاحظ فيها أنها جميعاً تأتي في سياق التكريم، من ذلك قوله تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (الأنبياء: 26).
- <sup>8</sup> دُونَ عَامِ 1776 مِنْ قَبْلِ الْفَرَجِينِينَ : توماس جيفرسون وجورج ماسون وجيمس ماديسون.. وغيرهم.
- <sup>9</sup> نونفاك: مايكل، الحرية في ظل الله : المفهوم الغربي للحرريات الدينية ومقاربة الرؤية الإسلامية مجلة التسامح ، مسقط عمان ، العدد 14 ، ربيع 1427هـ/2006م.
- <sup>10</sup> يس: عبد الجواد، السلطة في الإسلام: العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000، الدار البيضاء/بيروت، ص 7.

- <sup>11</sup> **الذلقراطية:** " النظام السياسي والثقافي الذي يستغل التفاوت في علاقات القوة الداخلية والخارجية معا". وأول استعمال للمصطلح من طرف المهدي المنجرة في كتابه : انتفاضات في عهد الذل قراطية، منشورات البوكيلي ، القنيطرة ، 2001.
- انظر: المهدي المنجرة، الإهانة في عصر الميغامبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/بيروت-لبنان، ط5، 2007، ص 9 .
- <sup>12</sup> **الميغامبريالية:** "الإمبريالية العظمى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتحالفاتها". المصدر السابق، ص 8.
- <sup>13</sup> المصدر السابق، ص 9.
- <sup>14</sup> حاج حمد: محمد أبو القاسم، حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة وتعليق: محمد العاني، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص33-34.
- <sup>15</sup> الحاج حمد، المصدر السابق، ص32.
- <sup>16</sup> المصدر السابق، ص41.
- <sup>17</sup> حاج حمد: محمد أبو القاسم، حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة وتعليق: محمد العاني، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص33-34.
- <sup>18</sup> نبيل سيساوي، مرجع سابق.
- <sup>19</sup> يقول المولى تبارك وتعالى: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ" (الأعراف:179).
- <sup>20</sup> حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، ص63.
- <sup>21</sup> المرجع السابق، ص41.
- <sup>22</sup> البقرة: 204 - 206.
- <sup>23</sup> البقرة: 208.
- <sup>24</sup> حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، ص25.
- <sup>25</sup> سورة مريم: 95.